

## تفسير سورة الصفات

وهي مكة

روى النسائي عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصفات. تفرد به النسائي<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴾ ﴿ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴾ ﴿ فَالتَّائِبَاتِ ذُكْرًا ﴾ ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ ﴿

عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: ﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴾ وهي: الملائكة ﴿ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴾ وهي: الملائكة ﴿ فَالتَّائِبَاتِ ذُكْرًا ﴾ هي: الملائكة. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. وروى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صَفُونَا كَصَفْوِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْبَتُنَا لَنَا طَهْرًا إِذَا لَمْ يَحْدِ الْمَاءُ»<sup>(٢)</sup>. وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يَتِمُّونَ الصَّفْوَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاوِنَ فِي الصَّفِّ»<sup>(٣)</sup>.

وقال السدي وغيره: معنى قوله: ﴿ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴾: أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ﴿ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴾: ما زجر الله عنه في القرآن. وكذا روى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿ فَالتَّائِبَاتِ ذُكْرًا ﴾ قال السدي: الملائكة يجتنبون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَالتَّائِبَاتِ ذُكْرًا عَذْرًا أَوْ تَذْرًا ﴾ [مرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي: من المخلوقات ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلائلها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المارج: ٤٠]. وقال في الآية الأخرى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ ﴾ [الرحمن: ١٧]، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِرَبِّهِ الْكَوَكِبِ ﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَّا الْمَلَائِكَةَ الْأَعْطَى رِقْدْفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ﴿ إِلَّا مَنْ خِطَفَ الْمَلَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿ بِرَبِّهِ الْكَوَكِبِ ﴾، قرئ بالإضافة

(١) النسائي في سننه (٨٢٦) رصحه الألباني .

(٢) مسلم (٥٥٢ / ٤) .

(٣) مسلم (٤٣٠ / ١١٩) وأبو داود (٦٦١) والنسائي في سننه (٨١٦) وابن ماجه (٩٢٢) .

ويابلدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يشقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فنضىء لاهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاطِرِينَ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رُجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]. وقوله هاهنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مُارِدٍ﴾ بمعنى: المتمرد المعاني إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ناقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أى: لتلا يصلوا إلى الملا الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحىه الله بما يقوله من شرعه وقدره. ولهذا قال: ﴿وَيَقْدِرُونَ﴾ أى: يرمون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أى: من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أى: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿وَأَلْهَمُوا عَذَابَ وَأَصِيبٍ﴾ أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهى الكلمة يسممها من السماء فيلقها إلى الذى تحته، ويلقيها الآخر إلى الذى تحته، فرميا أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن ياتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ نَاقِبٌ﴾ أى: مستتير. روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا يستمعون الوحى. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا ترمى. قال: فإذا سمعوا الوحى نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسماً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمر حدث. قال: قبث جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلين نخلة - قال وكعب: يعنى بطن نخلة - قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث (١). وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَمِتَةً حَرَمًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا. وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشْرًا أَرِيدُ بَنِي فِي الْأَرْضِ أَمْ آرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿أَوْ إِنَّا وَكُنَّا نُرَآهُ وَعظماً أَوْ إِنَّا لَنَسُوعُوثُونَ﴾ ﴿أَوْ إِنَّا وَكُنَّا الْأُولُونَ﴾ ﴿قُلْ نَسَمَ وَأَنَّهُ دَخِرُونَ﴾ ﴿فَأَنَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿﴾

يقول تعالى: قَسَلْ هؤلاء المنكرين للبعث: إيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ - وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» - فإنهم يقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم يتكروا للبعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم بين أنهم خلُقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعمقه ببعض . وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج . وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد .

وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ أى: بل عجبت - يا محمد - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وائت موثق مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها . وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون عما تقول لهم من ذلك . ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً ﴾ أى: دلالة واضحة على ذلك ﴿ يَسْخَرُونَ ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون . ﴿ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين، ﴿ أَلَمْ نَسْأَلْكَ تَرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَجْرُوتُونَ . أَوَآبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى: قل لهم يا محمد: نعم تبثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ آتُورَةٍ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

ثم قال: ﴿ وَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

ربيع ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢﴾ ﴿ أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٣﴾ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْتَدَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٥﴾ وَقَفَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ ﴿٦﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٧﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قبلي الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة تَدَمُّوا كُلَّ النَّدَمِ حيث لا ينفعهم الندم، ﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ . وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُمَيِّزَ الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ قال النعمان بن بشير: يعنى بأرواجهم أشباههم وأمثالهم . وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وعن عمر: ﴿ أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ قال: أشباههم . يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر . ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: من الأصنام والانداد، تحشر معهم في أماكنهم .

وقوله: ﴿ فَاهْتَدَوْهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى: ارشدوهم إلى طريق جهنم ، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَتَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمٌا وَبُكْمًا وَصُمًا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧] . وقوله: ﴿ وَقَفَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ ﴾ أى: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون . وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول: إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴾ أى: كما رعمتم أنكم جميع مستصر، ﴿ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ أى: متقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه .

﴿ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَخَسَفُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾ ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴾ ﴿ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ ﴿ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ ﴿ بَلْ جَاءَهُ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة، كما يتخاصمون في دركات النار ﴿ يقول الضملاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل لبنا إن الله قد حكم بين العباد ﴾ [خاطر: ٤٧، ٤٨] . وقال: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صدقاتكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمت مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجمل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ [سبا: ٣١-٣٢] . وهكذا قالوا لهم هاهنا: ﴿ إنكم كتمت تأتونا عن اليمين ﴾ قال ابن عباس: يقولون: كتمت تقهرونا بالقدرة منكم علينا؛ لانا كنا أذلاء وكتمت أعزاء . وقال مجاهد: يعني: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين . وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿ إنكم كتمت تأتونا عن اليمين ﴾ قال: من قبل الخير، فتهنونا عنه وتطشونا عنه . وقال السدي: تأتونا من قبل الحق، ترينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الحق . وقال الحسن في قوله: ﴿ إنكم كتمت تأتونا عن اليمين ﴾: إى والله، يأتيه عند كل خير يريد فيصده عنه . وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى امرنا به . وقال يزيد الرشك: من قبل ﴿ لا إله إلا الله ﴾ . وقال خصيف: يعنون من قبل ميامنهم . وقال عكرمة: ﴿ إنكم كتمت تأتونا عن اليمين ﴾ قال: من حيث نامتكم .

وقوله: ﴿ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ : تقول القادة من الجن والإنس للاتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أى: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿ بل كتمت قوماً طاغين ﴾ أى: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهدنا استجبت لنا وتركتم الحق الذى جاءكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤكم به، فخالقتموهم . ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذابِقُونَ . فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله: أنا من الأشقياء الذائعين العذاب يوم القيامة، ﴿ فَأَعْوَبْتَكُمْ ﴾ أى: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ أى: دعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبت لنا .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أى: الجميع فى النار، كل بحسبه، ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون . عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله فى كتابه - وذكر قوماً استكبروا - فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١). ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا نَأْتِرْكُمُ آلِهَةً لِّشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أى : نحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذبا لهم، وردا عليهم: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى رسول الله ﷺ. جاء بالحق فى جميع شرعة الله له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى : صدقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله فى شرعه وأمره كما أخبروا ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [ فصلت : ٤٣ ].

﴿إِن كُنتُمْ لَدَآئِفِ الْعَذَابِ أَلْيَسَ﴾ ﴿وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿فَوَاكِهِ﴾ ﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ﴿بِضَاءٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ﴿وَعِندَهُمْ قُفُوسٌ مُّطْرَبَةٌ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُودٌ﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِن كُنتُمْ لَدَآئِفِ الْعَذَابِ أَلْيَسَ﴾. وما تحزون إلا ما كنتم تعملون، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ﴾. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات [ العصر: ٣١ ]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات [ التين: ٦٤ ]، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾. ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جحيمًا [ مريم: ٧١، ٧٢ ]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. إلا أصحاب اليمين [ المدثر: ٣٨، ٣٩ ]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أى: ليسوا بذقون العذاب الأليم، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ قال قتادة، والسدى: يعنى الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهِ﴾ أى: متنوعة ﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ أى: يُخدمون ويرفهون وينعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. على سرر مطابلين قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

وقوله: ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾. بضاء لذة للشاربين. لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلِذُونَ﴾. بالكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون [ الواقعة: ١٧ - ١٩ ]، فتره الله خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - ونهاها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال زيد بن أسلم: خمر جارية بضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردى، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفى الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك. وقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا، وهو وجع البطن - قاله ابن عباس، مجاهد، وقتادة، وابن زيد - كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه، لكثرة مايتها. وقال

قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. ، وعن السدي: لا تقتال عقولهم ، وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، والحسن، وعطاء الخراساني، وغيرهم. وقال الضحاك، عن ابن عباس: في الحمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فترها عن هذه الخصال، كما ذكر في سورة الصافات .

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُقِ﴾ أي: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. وقوله: ﴿عَيْنٌ﴾ أي: حسان العين. وقيل: ضخام العين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيلاء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول رليخا في يوسف عليه السلام حين جملة وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرته، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَلْيَكُنْ لِلَّهِ الْمُتَّيِّنِينَ فِيهِ وَقَدْ رَأَوْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَحْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أي: هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي، وهكنا الحور العين ﴿خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُقِ عَيْنٌ﴾ .

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَهْرٌ مُكْتُونٌ﴾: وصفهن بترافق الأبدان بأحسن الألوان. قال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَهْرٌ مُكْتُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكتون. وقال الحسن: يعني: مصون لم تمسه الأيدي. وقال السدي: البيض في عشه مكتون. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَهْرٌ مُكْتُونٌ﴾، يعني: بطن البيض. وقال عطاء الخراساني: هو السحاء الذي يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة. وقال السدي: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَهْرٌ مُكْتُونٌ﴾ يقول: يياض البيض حين يتزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مُكْتُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يسها جناح الطير والعش، وتناولها الأيدي بخلاف داخلها. والله أعلم.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٠﴾ يَقُولُ أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥١﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَلْنَا أَوَدَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ هَلْ أُشْرُكَ مَطْلَعُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٤﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَأَزِيدَنَّ ﴿٥٥﴾ وَوَلَا نِعْمَةَ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٦﴾ أَمَا تَحْسَبُ يَمِينَتِي ﴿٥٧﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴿٥٩﴾ لِيُثَلَّ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها ؛ وذلك من حديثهم على شرايبهم، واجتماعهم في توادهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسمون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قال مجاهد: يعني شيطاناً. وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا. ولا تنافي بين كلام مجاهد، وابن عباس ؛ إن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاونان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الانعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْغَفَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ - ٦] ؛

ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُضَلِّينَ﴾ أى: آنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ١٩ معنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿إِنَّا مَتَّأ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمُدَّبُونَ﴾ قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون ؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى: لمجنون بأهملنا ؟ وكلاهما صحيح .

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أُنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ أى: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلساته من أهل الجنة ﴿فَطَلَعُ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وقتادة، يعنى فى وسط الجحيم. وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد. ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ قَرْدِينَ﴾، يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك، ﴿وَتَوْلَا نِعْمَةً رَبِّهِ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ﴾ أى: ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك فى العذاب، ولكنه تفضل ورحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى إلى توحيده، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الاعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿أَلَمْأ نَحْنُ بِمَعِينٍ . إَلَمْأ مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمَعْدُبِينَ﴾: هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة والإقامة فى دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ هَذَا لَهَوُ الْفُورِ الْعَظِيمِ﴾. قال ابن عباس، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]، قال ابن عباس: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أى: لا يموتون فيها. فنعناها قالوا: ﴿أَلَمْأ نَحْنُ بِمَعِينٍ . إَلَمْأ مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمَعْدُبِينَ﴾. وقال الحسن البصرى: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿أَلَمْأ نَحْنُ بِمَعِينٍ . إَلَمْأ مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمَعْدُبِينَ﴾، قيل: لا. قالوا: ﴿إِنْ هَذَا لَهَوُ الْفُورِ الْعَظِيمِ﴾. وقوله: ﴿لِيُغْلِبَ هَذَا لِيُغْلِبَ الْعَامِلُونَ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة. وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لئلا هذا النعيم وهذا الفور فليعمل العاملون فى الدنيا، ليصيروا إليه فى الآخرة .

﴿أَذَلَّكَ حَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّرْقُمِ﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا شَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنهَا فَمَالَتُونَ مِنهَا الْبُطُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمُ عَلَيْهَا لَشَوْبَاتًا مِّنْ حَيْبٍ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكِلَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿إِنَّمْ أَلْفَوْا آجَابَةً مِّنْ صَّالِينَ﴾ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابِهِمْ مُّهْرَجُونَ﴾

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكره من الجنة وما فيها من مآكل ومشرب ومناجح وغير ذلك من الملاذ، خير ضيافة وعطاء ﴿لَمْأ شَجَرَةُ الزُّرْقُمِ﴾ ؟ أى: التى فى جهنم. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزرقوم، كقوله تعالى: ﴿وشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْئَاءٍ تَنْبُتُ بِاللِّدْنِ وَصَبِغٌ لِلظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعنى الزيتون. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَنهَا الْعَالُونَ الْمَكْدُبُونَ . لَا كَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُرْقُم﴾ [الرواهة: ٥١، ٥٢].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ قال قتادة: ذكرت شجرة الزرقوم، فافتن بها أهل الضلالة، وقالوا: صاحبكم يبتكم أن فى النار شجرة، والنار تاكل الشجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غدت من النار، ومنها خلقت. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جهل - لعنه الله -: إنما الزرقوم التمر والزيد أتزقمه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد

بشجرة الزقوم اختباراً تختبر به الناس، من يصدق منهم عن يكذب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِرِزْقِنَا إِلَّا لِقْدًا لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَعْرُوفَةَ فِي الْقُرْآنِ وَتَخَوَّفَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقوله: ﴿إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿ظَلَمَهَا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الشياطين تشيع لها وتكرهه لذكرها. وإنما شبهها بروس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة للنظر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَايِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾: ذكر تعالى أنهم ياكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما فى معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ. لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْسُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الناشئة: ٦، ٧]. وروى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟». ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهِمْ لَشُوبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم. وقال فى رواية عنه: ﴿شُوبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مزجا من حميم. وقال غيره: يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَيِّ الْجَحِيمِ﴾ أى: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجميم تتوقد، وسعير توهج، فتارة فى هذا وتارة فى هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا فتادة هذه الآية، وهو تفسير حسن قوى. وقال السدى فى قراءة عبد الله: «ثم إن مقلهم لإلى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذى نفسى بيده لا يتصف النهار يوم القيامة حتى يقبل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وعن عبد الله قال: لا يتصف النهار يوم القيامة حتى يقبل هؤلاء ويقبل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، «ثم إن مقلهم لإلى الجحيم». قلت: على هذا الضمير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَقْرَبُ آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أى: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُّهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبيرة: يسفون.

﴿وَلَقَدْ صَلَّ بَيْنَهُمْ آكْفَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، يذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم عادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك الكذابين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠٢) من آل عمران.

ولهذا قال : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿ وَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ سَلَّمَ عَلَيْنَا نُوْحٌ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَعْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ﴿

لما ذكر تعالى عن أكثر الاولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة. لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فاتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَقَدْ نَادَانَا نُوْحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ أى: فلنعم المجيبون له، ﴿ وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو التكذيب والأذى، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وقال قتادة فى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وروى الإمام أحمد: عن سمرة؛ أن نبى الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». ورواه الترمذى (١). والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوّل، وهم اليونان المتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الشئاء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والشئاء الحسن. وقوله تعالى: ﴿ سَلَّمَ عَلَيْنَا نُوْحٌ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والشئاء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم. ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: هكذا نجزي من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك. ثم قال: ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ ثُمَّ أَعْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أى: أهلكتناهم، فلم يبق منهم عون تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا اثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿ وَإِنِّ مِنْ شَيْعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ أَيْفَاكَ اللَّهُ تَرِيدُونَ ﴾ ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿

قال ابن عباس: ﴿ وَإِنِّ مِنْ شَيْعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسته. ﴿ إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾: انكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿ أَيْفَاكَ اللَّهُ تَرِيدُونَ ﴾. فما ظنكم برب العالمين؟ قال قتادة: يعنى: ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم معه غيره؟

﴿ فَظَلَر نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴾ ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ﴿ فَنُزِّلُوا عَنْهُ مُذَبِّبِينَ ﴾ ﴿ فَرَأَى إِلَاءَ الْهَيْبِمِ ﴾ ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْتُونَ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴾ ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَشْحَبُونَ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا إِنَّمَا لَمْ بَنَيْنَا فَاَلْقَوْهُ فِي الْحَجِيرِ ﴾ ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ﴿

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك اليعقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أرف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلي بالهتهم فيكسرهما، فقال لهم كلاما هو حق في نفس الامر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فَنُزِّلُوا عَنْهُ مُذَبِّبِينَ ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم. معنى قتادة: أنه نظر في السماء متفكرا فيما يليههم به، فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أى: ضعيف. فأما الحديث الذى رواه ابن جرير عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ولم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: تتين في ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ بَلْ لَعَلَّ كَبِيرَهُمْ هَذَا ﴾ [الانبيا: ٦٣]، وقوله في سارة: هي اختى (١)، فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هنا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا مجورا، وإنما هو من المعارض في الكلام المقصد شرهى ديني، كما جاء في الحديث: « إن في المعارض لمنذوحة عن الكذب » (٢). قال سفيان في قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ يعنى: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بالهتهم. وقال آخرون: فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعنى: مرض الموت. وقيل: أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أى: مريض القلب من عبادتكم الاوثان من دون الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَنُزِّلُوا عَنْهُ مُذَبِّبِينَ ﴾ أى: إلى عيدهم، ﴿ فَرَأَى إِلَاءَ الْهَيْبِمِ ﴾ أى: ذهب إليها بعد أن خرجوا في سرعة واختفاء، ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْتُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبارك لهم فيه.

وقوله: ﴿ فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ قال الفراء: معناه: مال عليهم ضربا باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضربا باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جنفا إلا كثيرا لهم لعلمهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الانبياء تفسير ذلك. وقوله هاهنا: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون. وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفي سورة الانبياء مبسطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذى فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيهم، فقال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَشْحَبُونَ ﴾ ١٢ أى: أتعبدون من دون الله من الاصنام ما أنتم تحتونها وتعملونها بأيديكم؟ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين يتلزام، والأول أظهر. فعند ذلك لما قامت عليهم الحججة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ إِنَّمَا لَمْ بَنَيْنَا فَاَلْقَوْهُ فِي

(١) ابن جرير في التفسير (٢٣ / ٤٥). وهو في البخارى (٣٣٥٨) والترمذى (٢١٦٦).

(٢) البيهقى في السنن الكبرى (١٠ / ١٩٩) عن عمران بن الحصين، مرفوعا وموقوفا، والموقوف أصح.

الجميع» وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الانبياء، ونجاه الله من النار واطهره عليهم، وأعلى حجه ونصرها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ ﴾ ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ آيَاتٍ أَنذِرُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ ﴿ قَالَ يَتَابَعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّمَ لِلجِبِينِ ﴾ ﴿ وَتَدِينْتُهُ أَنْ يَتَّبِعُنِي ﴾ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْبَتُوا الْمُنِينَ ﴾ ﴿ وَتَدِينْتُهُ بِذِيحِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ وَتَرْكَنَّا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَيَشْرَتُهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَتَرْكَنَّا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمَنْ دُرَيْتِهِمَا حَسَنٌ وَظَلَمْنَا لِنَفْسِهِ مِيراثًا ﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّئِينَ ﴾ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» يعني: اولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقههم. قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحده، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة . وهذا تاويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الاولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣] . وقال تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] ، أى : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَىٰ ﴾ أى: كبير وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة

وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَى﴾ يعنى: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل، ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي آرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحى، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي آرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾. وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: سأصبر واحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ مِنْ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مریم: ٥٤، ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أى: فلما تشهدا وذكرنا الله تعالى: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، يعنى: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدى وغيرهم.

ومعنى ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالناسك عرض له الشيطان عند السعى، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمره العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمره الوسطى فرماه بسبع حصيات، وتَمَّ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لي ثوب تكفنتي فيه غيره، فاخلعه حتى تكفنتي فيه. فمأجله ليخلعه، فتودى من خلفه: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْفَةَ﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض اقرون أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نبيع ذلك الضرب من الكباش (١). وقوله تعالى: ﴿وَتَادِبْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْفَةَ﴾ أى: قد حصل المقصود من رؤياك واضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبة فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينها صفيحة من نحاس، وتودى إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَقْتَ الرَّءْفَةَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكروه والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ أى: الاختبار الواضح الجلى؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله، متقاداً لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وقوله: ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ عن ابن عباس قال: الصخرة التى بمنى بأصل ثبير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحرف. وعن ابن عباس: كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحرف نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لاجزأه أن يذبح كبشاً، فإن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾. والصحيح الذى عليه الاكثرون أنه قُدى بكبش. وقد روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم - وكادت عامة أهل دارنا: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة - وقال مرة: إنها سألت عثمان:

(١) المستد (٢٧٠٧) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

لم دعاك النبي ﷺ ؟ قال : قال لى رسول الله ﷺ : «إني كنت رأيتُ قرنى الكبش، حين دخلت البيت، فسييت أن أمرك أن تخمرهما، فخمّرهما، فإنه لا ينفى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت، فاحترقا (١). وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قرىشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

وقوله : ﴿وَبَشِّرَاهُ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ : لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق. وقوله : ﴿نَبِيًّا﴾ حال مقدرة ، أى : سيصير منه نبى من الصالحين. وقوله : ﴿وَبَارِكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنًا وَظَالِمًا لِنَفْسِهِ مِينًا﴾ كقوله تعالى : ﴿قَبْلِ بَا نُوحٍ أَهْبَطَ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَبِّئُكُمُ ثُمَّ بَشِّرُهُمْ مِّنَّا عَذَابَ آلِيمٍ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَسَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١﴾ وَجَبَّتْهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ وَتَصَرَّتْهُمَا فَكَانُوا هُمُ الْعَالِيَيْنِ ﴿٣﴾ وَأَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿٤﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿٦﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من الثبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحيااء النساء، واستعمالهم فى أحسن الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، وغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الانباء: ٤٨] ، وقال هاهنا : ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى : فى الأقوال والأفعال ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أى : أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله : ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَلِإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَنَّ الْوَسِيلَةَ ﴿١﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿٣﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّبَعُوا مَا تَتَّبِعُونَ ﴿٥﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿٦﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾﴾

قال قتادة، وابن إسحاق، يقال : إلياس هو إدريس. وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى : الا تخافون الله فى عبادتكم غيره ؟ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة : ﴿بَعْلًا﴾ معنى :

وبا. قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة ارد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال زيد بن أسلم: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك». غريب دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أى: أتعبدون صنما؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى للعذاب يوم الحساب ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: الموحدين منهم. وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى: ثناء جميلا، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ كما يقال فى إسماعيل: إسماعيل. وهى لغة بنى أسد. وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهى قراءة ابن مسعود. وآخرون: «سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ»، يعنى: آل محمد ﷺ. وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسيره.

﴿وَإِنَّ لَوْلَا لَيْمَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٤﴾ إِذْ بَخَّيْنَتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٥﴾ إِلَّا جَبْرًا فِي الْفَعْدَيْنِ ﴿١٣٦﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٧﴾ وَإِنَّا لَنُرَوِّنُهُمْ مُّصِيبِينَ ﴿١٣٨﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات، وجعل محللتهم من الأرض بحيرة متنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها سبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾: أى: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿وَإِنَّ يُؤَنَسَ لَيْمَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٠﴾ إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤١﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٢﴾ فَالْقَمَّةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٣﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٤﴾ لَلَيْثِ فِي طَبْعِهِ: إِلَىٰ يَوْمِ يُعْعَثُونَ ﴿١٤٥﴾ فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٦﴾ وَأَبْتَنَّا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٧﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٨﴾ فَتَأَمَّنُوا فَمَرَدْنَا لَهُمُ الْخَوْتُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٩﴾﴾

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، فى سورة الأنبياء. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينهى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» ونسب إلى أمه<sup>(١)</sup>، وفى رواية قيل: إلى أبيه. وقوله: ﴿إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أى: المملوء بالامعة «فَسَاهَمَ» أى: قارع «فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» أى: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَمَّبت بها الامواج من كل جانب، وأشرفوا على الفرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس، عليه الصلاة والسلام، ثلاث مرات، وهم يظنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتزم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما. فجاء ذلك الحوت

(١) البخارى (٢٣٩٥) ومسلم (٢٣٧٧ / ١٦٧).

والقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت. وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذت لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة، وقيل: أربعين يوما. وقال الشعبي: التقمه ضحى، وقذفه عشية. والله أعلم بمقدار ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وفى حديث عن ابن عباس: «تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» (١). وقال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وعطاء بن السائب، وقتادة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يعنى: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسيحين فى جوف أبيه. وقيل: المراد: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله: ﴿فَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الانبيا: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبيرة وغيره.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَدَّنَاهُ﴾ أى: القيناه ﴿بِالْعُرَاءِ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا. ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع. وعن سعيد ابن جبيرة: وكل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين. وفى رواية عنه: كل شجرة تهلك من عاصمها فهى من اليقطين. وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ الدُّبَابَ، ويتبعه من نواحى الصَّحْفَةِ (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذ الحوت. رواه ابن جرير. وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس - فى رواية عنه - بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفا. وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفا. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول فى ذلك: معناه إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عنكم، يقول: كذلك كانوا عنكم. ولهذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَابِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ

(١) المسند (٢٦٦٩)، وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح»، والترمذى (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) البخارى (٥٤٣٩).

أَوَأَدَّبْتُمْ [ النجم : ٩ ] أن المراد ليس انقص من ذلك ، بل أريد . وقوله : ﴿ فَأَتُوا ﴾ أى : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ، عليه السلام ، جميعهم ﴿ فَصَنَعْنَا لَهُمْ آيَ : إلى وقت آجالهم ، كقولهم : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قُرْبَى أَمْتٍ لَفَفَعْنَا بِعَائِبِهَا لِأَقْوَمِ بُرْسٍ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْغَمِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [ يونس : ٩٨ ] .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ ﴾ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لِقَابِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ ﴿ وَوَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾

يقول تعالى منكرأ على هؤلاء المشركين فى جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أى: من الذكور، أى: يودون لانفسهم الجيد. ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [ النحل : ٥٨ ] أى: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول عز وجل: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذى لا يختارونه لانفسهم؟ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُيُوتُ ﴾ كقولهم : ﴿ أَنْتُمْ الذُّكُورُ وَوَلَهُ الْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [ النجم : ٢١ ، ٢٢ ] .

وقوله : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أى: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم ؟ كقولهم : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَّابٌ شَهِادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴾ [ الزمر : ١٩ ] أى: يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ لِقَابِهِمْ ﴾ أى: من كذبهم ﴿ يَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهِ ﴾ أى: صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولدا. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم. ثم قال منكرأ عليهم: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ أى: أى شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين ؟ كقولهم: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [ الإسراء : ٤٠ ] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى : ما لكم عقول تندبرون بها ما تقولون ؟ ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ أى: حجة على ما تقولونه ﴿ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: هاتوا برهاننا على ذلك يكون مستندا إلى كتاب منزل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوز العقل بالكلية.

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا ﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله. فسأل أبو بكر: فمن أمهاتهن ؟ قالوا: بنات سرورات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ ﴾ أى: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم. وقوله: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملمحون علوا كبيرا. وقوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَعْنُ الْمُسِخِرُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ﴿١٧٠﴾ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاعلين . إلا من هو صال الجحيم﴾ أى : إنما يتقاد لمقاتلكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أصل منكم عن ذرى النار ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الاعراف: ١٧٩] . فهذا الضرب من الناس هو الذى يتقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿ إنكم لفي قولٍ مختلفٍ . يؤكّد عنه من أولك ﴾ [ الذاريات: ٨ ، ٩ ] أى : إنما يضل به من هو مافوك ومبطل .

ثم قال تعالى منزهاً للملائكة بما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿وما منّا إلا له مقام معلوم﴾ أى : له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزها ولا يتعداها . وقال الضحاك فى تفسيره: ﴿وما منّا إلا له مقام معلوم﴾ قال: كان مسروق يروى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿ وما منّا إلا له مقام معلوم ﴾ (١) . ﴿ وإنا نحن الصّافرون ﴾ أى : نقف صفواً فى الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿ والصّافات صفّاً ﴾ قال الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت: ﴿ وإنا نحن الصّافرون ﴾ ، فصفوا. وقال أبو نصرّة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استوتوا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿ وإنا نحن الصّافرون ﴾ ، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر . وفى صحيح مسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فصلنا على الناس بثلاث: جعلت صفونا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وترتيبها طهوراً» الحديث (٢) .

﴿ وإنا نحن المسبحون ﴾ أى : نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه ونترجمه عن القائنص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه . وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿ وما منّا إلا له مقام معلوم ﴾ : الملائكة ﴿ وإنا نحن الصّافرون ﴾ : الملائكة ﴿ وإنا نحن المسبحون ﴾ : الملائكة يسبحون الله عز وجل . وقال قتادة: ﴿ وإنا نحن المسبحون ﴾ . يعنى: المصلون، يشيتون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ [ الانبياء: ٢٦ - ٢٩ ] . وقوله: ﴿ وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنّا عباد الله المخلصين ﴾ أى : قد كانوا يتمنون

(١) مشكل الآثار للطحاوى (٤٣/٢)، والحديث رواه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٥٢)، وقال: «إسناد صحيح على شرط مسلم، وفى ابن عطاء كلام لا يضر» .

(٢) مضى تخريجه فى أول السورة .

قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢] ، وقال: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ [الانعام: ١٥٦ ، ١٥٧] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَكُفِّرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - عز وجل - وتكذيبهم - رسوله ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَنْصَرُّهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَلَيْعِدَاتِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَنْصَرُّهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الاول أن العاقبة للرسول وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الجدالة: ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غانر: ٥١] ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُتَرَسِّلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم عن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونحى عباده المؤمنين ﴿ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: نسا ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿ وَأَنْصَرُّهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أى: انظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ . ثم قال عز وجل: ﴿ أَلَيْعِدَاتِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلثهم، فيبس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم . قال السدى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ يعنى: بدارهم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى: فيبس ما يتصبحوه ، أى: بئس الصباح صباحهم ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أنس ، قال : صبح رسول الله ﷺ خبير، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيم ورازا الجيش، رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس . فقال النبى ﷺ : «الله أكبر، خربت خبير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة قال: لما صبح رسول الله ﷺ خبير، وقد أخذوا مساحيم وخنوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبى ﷺ نكصوا مدبرين، فقال نبى الله

(١) البخارى (٣٧١ ، ٤١٩٧) ومسلم (١٣٦٥ / ١٢٠) .

ﷻ : « الله أكبر ، الله أكبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (١) . لم يخرجوه من هذه الوجهه ، وهو صحيح على شرط الشيخين .

وقوله : ﴿ وَقَوْلُ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصُرُ فَسَوْفَ يَصِيرُونَ ﴾ تأكيد لما تقدم من الامر بذلك .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

ينزه تعالى نفسه ويقدها ويربثها عما يقول الظالمون الكاذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أى : ذى العزة التى لا تُرَام ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى : عن قول هؤلاء المعتدين المفسرين ، ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة ، لسلامة ما قالوه فى ربهم ، وصحته وحقيقته ، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : له الحمد فى الاولى والآخرة فى كل حال . ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ، ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما فى هذا الموضع ، وفى مواضع كثيرة من القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقد وردت أحاديث فى كفاة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك » (٢) . وقد أفردت لها جزءا على حدة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) المسند ( ٢٨ / ٤ ) .

(٢) انظر على سبيل المثال : المسند ( ٤٥٠ / ٣ ) والترمذى ( ٣٤٣٣ ) وأبو دارد ( ٤٨٥٨ ) والحاكم فى المستدرک ( ٥٣٦ / ١ ) ، ( ٥٣٧ ) .